المشرق

مفاخر دمشق المسيحيّة

محاضرة القاها الاب لويس شيخو اليسوعيّ

في معهد الآثار العربيّة في دمشق في ٦ نيسان ١٩٢٤

مقدمة

دمشق حاضرة الشام وجنة الشرق وعروس المدن تباهي بموقعها وانهارها وحدائقها وثمارها أطيب بلاد الله واجملها كما قال شاعرها:

بلادٌ بها الحصباء درٌّ وتربُها عبيرٌ ونهرُ الشأمِ شهدٌ وسلسلُ
تسلسلَ فيها ماؤها وهو معلَقٌ وصحَّ نسيمُ الروض وهو عليلُ

فلهذه العاصمة من المفاخر ما قلَّ اجتماعهُ لسواها على قول الآخر:

مدينةٌ ليس يُضاهَى حسنُها في سائر الدنيا ولا آفاقها
قد ربَعَ الربيعُ في ربوعها وسبقت الدنيا الى اسواقها
لا تسأمُ العيونُ والانوف من رؤيتها يوماً ولا اتشاقها

فهي عريقة في القِدَم كما يدلُّ عليهِ ذكرُها في سفر التكوين على عهد ابرهيم الخليل (تك ١٤: ١٥) ثمَّ في آثار البابليين والمصريين مع اختلاف قليل في صورة اسمها الهيروغليفي والاشوري ومع اقحام راء فيهِ بالآراميَّة «دَرْمسوق» سواء كان هذا الاسم مشتقًّا من اسم بانيها كما يزعم العرب او من حُسن موقعها فكأنَّ «دمشق» مقلوبة عن «دِمَقْس» وهو الحرير والديباج اشارةً الى بساتينها وغوطتها

ومفاخر دمشق في العهد القديم متعدِّدة لا يسعنا وصفها وذلك ما دفع الامم الكبيرة من اموريين وحثيين ومصريين وكلدان ويونان ورومان قبل العرب

والاتراك على ان يطمحوا ببصرهم اليها ليستولوا عليها . وقد استقلّت مدّةً فصار ملكها الى سلالةٍ وطنيّة . وزعم البعض انّ ابرهيم الخليل عند قدومه من بلاد ما بين النهرين جلس على عرشها ردحةً من الزمن

على انّ هذه المفاخر لم يطمسها الدهر كغيرها من حواضر الشرق كبابل ومنف ونينوى وان فقدت استقلالها فقد استعاضت عنهُ بامجاد اخرى صانتها بكل حرص الى عهدنا ومن اراد تعدادها اتّسع امامهُ المجال . وكفاها عزًّا انّها عُدّت في كل اطوار التاريخ كأس مدن الشام

وقد اقتصرتُ في هذه المحاضرة على مفاخر دمشق النصرانيّة اعني منذ عهد رُسل المسيح الى عهدنا وذلك بنظر عموميّ يُلمّ بها إلماماً كما يقتضي المقام

١ اوائل النصرانيّة في دمشق

قد حظيت دمشق بنعمة الدعوة المسيحيّة بعد اورشليم(١ وقبل سواها من مدن الشام حتى انّها سبقت انطاكية نفسها التي دُعي فيها تلاميذ الرب مسيحيين اوّلاً (اعمال ١١ : ٢٠—٢٧) . ولنا على ذلك دليل جليل في ارتداد القديس بولس الذي وقع في السنة الثالثة بعد صعود الربّ وفي سنة استشهاد القديس اسطفانوس . فانّ هذا الرسول قبل ايمانهِ لم يطلب رسائل من رؤساء كهنة اليهود ليلقي القبض على المسيحيين في دمشق كما ورد في سفر الاعمال للقديس لوقا (٩ : ١—٢) الّا لعلمهِ بنموّ النصرانيّة فيها دانوا بها كما يظهر بدعوة مواطنيهم الذين حضروا اورشليم يوم العنصرة عند حلول الروح القدس على التلاميذ فاعتمدوا ثمّ رجعوا الى وطنهم فبشّروا بمجيء المسيح . وهناك لقي بولس حنانيًا الذي عمّدهُ (اعمال ٩ : ١٩) والتلاميذ الذين مكث معهم (٩ : ٢٠) . ثمّ حصل لدمشق فخرٌ آخر بأن قام بولس فيها أياماً كثيرة (٩ : ٢٣) مبشّراً بالمسيح بين يهود المدينة فتقوا عليهِ ولولا الاخوة الذين خلّصوهُ من ايديهم لكانوا قتلوهُ (٩ : ٢٥) وكانت لليهود سطوة عظيمة يبلغ عددهم في الفيحاء نحو خمسين الفاً . وآثار السور الذي دلّوهُ منهُ في سلّ لا تزال باقيةً . لكنهُ بعد سفرهِ الى انحاء

١) في تقليد المسلمين انّ السيّد المسيح دخل دمشق وانهُ على منارة جامعها الاموي سيأتي ليدين العالمين

العرب عاد وبشّر ثانيةً في الفيحاء كما اخبرنا هو في رسالته الى اهل غلاطية (١ : ١٧). وجاء في تقليد الكنيسة اليونانيّة كما ورد في كتاب منسوب الى القديس دوروثاوس(١ ان حنانيًا المذكور كان اوّل اسقف على دمشق وليس الامر بمستبعد. وقد اكتسب المسيو دي‌لوره (E. de Lorey) شكر الدمشقيين بالحفريّات الاثريّة التي باشرها سنة ١٩٢٢ قريباً من معبد القديس حنانيًا الذي للآباء الفرنسيسيين فاستخرج آثار تلك

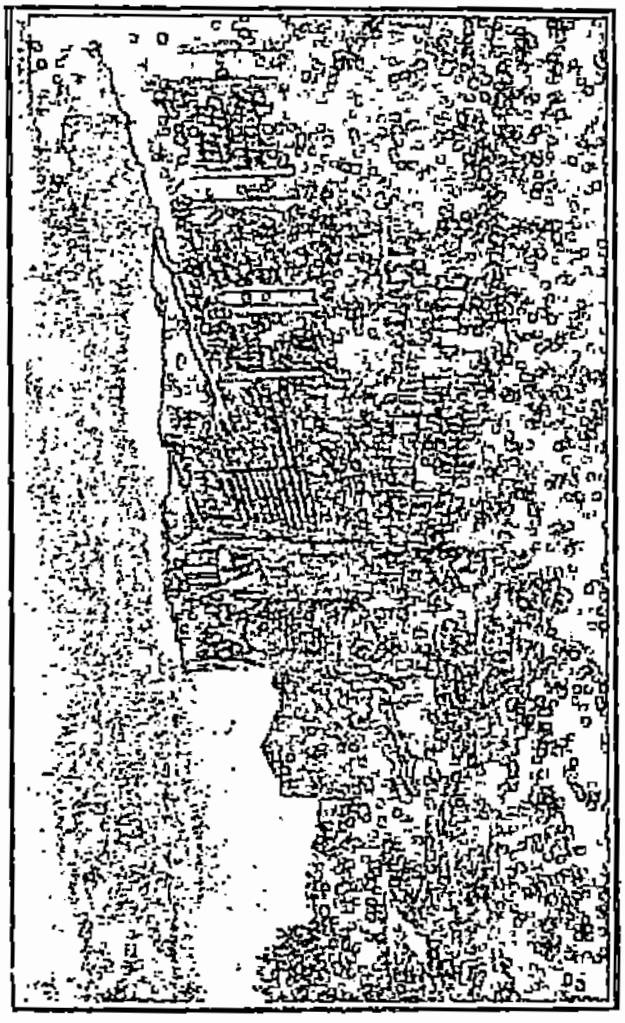

بقايا السور الذي أنزل منهُ القديس بولس

١) اطلب مجموعة الآباء اليونان لمين (Migne, PP. GG., XCII. 1061)

الكنيسة الملكيّة الراقية الى القرون الوسطى الدالّة على مقام جليل واسع الارجاء محكم الهندسة ذي عمَد ونقوش جميلة

ويُضاف الى هذا الاثر بيت يهوذا الطرسوسي قرب الباب الشرقي الذي عنده نزل ضيفاً القديس بولس يوم اقامته في دمشق (اعمال الرسل ٩ : ١١) شيَّد النصارى هناك كنيسة قديمة ذكرها كوارزميوس في القرن السابع عشر كان المسلمون حوّلوها الى مسجد وقد بقي منها قطعٌ من الفسيفساء.

لا نعرف شيئاً مما حلّ بنصارى دمشق قبل انتصار الصليب على عهد قسطنطين. ولا نزال مبالغين لو قلنا ان المسيحيين في تلك الحاضرة نالهم من الاضطهادات والمحن ما اصاب اخوتهم في انحاء سوريّة وكان في عهد القياصرة على دمشق من الحكّام الرومانيين الوثنيين رجالٌ مخلصون للدولة مطيعون للامبراطرة في أحكامهم العادلة والجائرة معاً وان كان الدهر قد أباد تلك الاثار وحرَمنا من معرفة تلك الاخبار

ومما جاء في تاريخ دمشق المدني ان ادريانوس قيصر اقام فيها مدّةً سنة ١٣٠ م ومنحها رتبة عواصم المدن الرومانيّة واضاف اليها سبتيميوس ساويرس نعمةً اخرى فنظمها في جملة المستعمرات الرومانيّة وجعلها مركزاً لولاية سوريّة فينيقية وادخل تحت حكمها كل البقاع وجهات حمص وتدمر وافامية فزادت بذلك ثروتها ونمت اعمالها. ولمّا صار الملك لديوقليسيانوس شيَّد فيها معملاً لصناعة الاسلحة التي شاع صيتُها منذ ذاك العهد. وكان للوثنيين هيكل عظيم على اسم الاله جوبيتر (المشتري) ترى حتى اليوم بعض بقايا قوسَي الانتصار المقامَين على جانبَيه الشرقي والغربي

فلا بدَّ من القول انَّ النصرانيّة لم تنطفئ جذوتها في تلك الحقبة في عاصمة الشام مع ما كان يحلّ بذويها من ضغط الحكّام عملاً باوامر امبراطرة رومية. وقد ارخى خناقهم فيلبوس العربي في اواسط القرن الثالث وهو المولود في عمّان وكان اوّل من تنصَّر من القياصرة على ما روى اوسابيوس

٢ النصرانيّة في دمشق في العهد البوزنطي

ثمّ عاد السلام الى دمشق بانتصار قسطنطين الكبير فازدهرت النصرانيّة وكثر عدد المنتمين اليها من المشركين والدليل على ذلك انّهم شيَّدوا في عهده وعهد ابنه

كنيستين ملكيّتين (باسيليقة) لاقامة الطقوس الدينيّة وكان يوسهم اسقف يُدعى مغنوس ورد اسمهُ بين آباء المجمع النيقوي سنة ٣٢٥ ولم يزل حيًّا الى سنة ٣٤٠ اذ نراهُ في عداد الاساقفة الذين حضروا في تلك السنة المجمع المنعقد في انطاكية (١

وفي تلك الاثناء ضبط يوليانوس الجاحد ازمّة الملك (٣٦١–٣٦٣) فرّ بدمشق وأطنب في محاسنها في رسائلهِ لكنّهُ امتعض من ترقّي النصرانيّة في ارباعها. والمظنون انهُ هو الذي حرّك اليهود على ايقاد النار في كنيستيها المذكورتين كما اخبر القديس امبروسيوس اسقف ميلانو وكان الجاحدُ حينما يحلّ يسعى في تعزيز الوثنيّة والحطّ من قدر النصرانيّة. تشهد ايضاً على نيّاتهِ السيّئة رسائلهُ الى اهل بُصرى ليحملهم على رئيس اساقفتهم القديس طيطوس. ولم يعاقب اليهود على إثمهم فعاد النصارى بعد موتهِ الى تجديد بناء الكنيستين على نفقتهم الخاصّة

لكن ثاوضوسيوس الكبير عاضهم بعد ذلك بأن ناهض عبَدة الاصنام وحوّل كثيرًا من هياكلهم الى كنائس وهكذا فعل بهيكل جوبيتر الدمشقي فانّهُ اعطاهُ نصارى دمشق فجعلوهُ هيكلًا بهيًا على اسم القديس يوحنّا المعمدان. ولمّا تهدّم قسمٌ منهُ في عهد ارقاديوس بن ثاوضوسيوس تولّى الملك اصلاحهُ. فانكسرت بذلك شوكة الوثنيّة وارتدّ حينئذٍ كثيرون من المشركين حتى انّ المدينة بعد زمن قليل اصبحت كلّها مسيحيّة الّا يهودها الذين ثبتوا مصرّين على ضلالهم. وارتفع بذلك مقام دمشق في نظام الكنائس وكان رئيس اساقفتها تُئيان بطريرك انطاكية مقدّماً على كلّ اساقفة البطريركيّة المذكورة يُحيي في المجامع بعدهُ.. ونعرف من هؤلاء الاساقفة ثمانية خلفوا مغنوس المذكور فحضر منهم فيلبُوس مجمع القسطنطينيّة (٣٨٠) ويوحنا مجمع افسس (٤٣١) وثاودورس مجمع خلقيدونية (٤٥١) واستاتيوس مجمع قسطنطينيّة الثاني (٥٥٣) وغيرهم ممّن وصفهم حضرة الاب كيرلس شارون في المشرق (١٢ [١٩٠٩] : ٩١٢–٩١٤)

وممّا يشهد على ترقّي النصرانيّة في عهدهم قبل ظهور العرب عدد الكنائس التي تشيّدت في تلك الاثناء.. فانّنا نشرنا في المشرق (١٤ [١٩١١] : ٨٠٠–٨٠٣) فصلًا مهمًّا نقلناهُ عن تاريخ ابن عساكر المخطوط في مكتبة الملك الظاهر في دمشق يذكر

(١) اطلب مجموعة المجامع لماني (ج ٢ ص ١٣٠٧)

فيه خمس عشرة كنيسة من كنائس النصارى وجدها العرب عند فتحهم دمشق وصالحوا عليها اهلها مع ما جرى في بعضها من الخراب

وكانت للكنيسة الكاتدرائيّة الكبرى الامتيازات الممنوحة لأُمهات الكنائس لها الحمى او الحرَم الذي يلتجئ اليه الجناة فلا يجوز قتلهم او اذاهم طالما يأوون اليه. وقد نشر قنصل فرنسة سابقاً المسيو نويل جيرون في المشرق (١٣ [١٩١٠] : ٧١–٧٢) صورة كتابة يونانيّة مرقومة على نصب حجري استخرجتهُ شركة الترموايّ في بعض اشغالها يستفاد منها انَّ ذاك النصب أقيم دلالةً على بعض حدود الحمى

٣ دمشق النصرانيّة في عهد بني امية

فتح العرب دمشق بعد واقعة اليرموك تحت إمرة ابي عبيدة وخالد بن الوليد في ايلول سنة ٦٣٥ وتوسَّط في الصلح بينهم وبين اهلها اسقفها الملكي واحد اعيانها وعاملها من قبل الروم المدعو منصور جدّ القديس يوحنا الدمشقيّ فأمَّن العرب الدمشقيين على ارواحهم واموالهم وكنائسهم. ويقول كتبتهم أنهم اقتسموا كنيستهم الكبرى فاخذوا لفرائضهم الدينيّة واجتماعاتهم نصفها الشرقي وتركوا النصف الآخر لاهلها. وفي قولهم هذا نظرٌ لان احد زوَّار الفرنج اسمهُ أركولف دخل دمشق ثلثين سنةً بعد الفتح العربيّ فوجد كنيسة القديس يوحنا الكبرى لم تزل كلُّها في ايدي المسيحيين. ويرتأي البرنس كايتاني (Annali dell'Islâm, III, 344-352) انَّ الرواية العربيّة عن اقتسام الكنيسة ضعيفةٌ حديثة لا سند لها وانَّها بقيت لاصحابها الى أيام الوليد

تولّى معاوية الحكم على دمشق فصارت منذ ذاك الحين مركزاً للدولة الاموّيّة التي قضت عليها الدولة العبّاسيّة بعد قرنٍ بتمّته واتّخذت بغداد كعاصمتها

وكان معاوية رجل سياسة بعيد النظر ذا عدل وانصاف فاحسن المعاملة الى النصارى واتّخذ كثيرين منهم لتدبير امور مملكته. وفي عهده وعهد خلفائه اشتهر بنو منصور وكانت أسرتهم ذائعة الصيت في انحاء الشام تقلَّد منهم البعض المراتب العالية الدينيّة والعالميّة كبطريركي اورشليم سرجيوس وايليّا في زمن ملكي يوزنطية ثاوفيلوس وباسيليوس المقدونيّ. وكان منصور ذا ثروة عظيمة ودين صادق اقامهُ هرقل حاكماً على دمشق فلم يزل محافظاً عليها بامانة الى ان ضاقت الاحوال باهلها

وفتكت بهم المجاعة وعجز الملك عن مساعدتهم فطلب الامان لاهلها كما رأيت وخلّص المدينة من القتل والنهب والحريق فنسبهُ زورًا بعض الروم الى الخيانة . وتولّى ابنهُ سَرجه او سرجيوس ديوان الخراج . قال الطبري في تاريخهِ (٢ : ٢٠٥ و ٢٢٨) انهُ «كان كاتب معاوية وصاحب امره». وقال ابو الفرج في الاغاني (١٦ : ٧٠) انهُ كان نديمًا ليزيد بن معاوية ثم كتب على الديوان لمعاوية الثاني ابن يزيد (الطبري ٢ : ٨٣٧) ثمّ جعلهُ عبد الملك بن مروان «كاتبهُ على الخراج والجند» (ابن عبد ربه ٢ : ٣٢٢) كفى بهذه الشواهد دليلًا على مقدرتهِ وعلوّ شأنهِ وحظوته لدى الخلفاء.

على انّ الله قد زادهُ نعمةً بأن رزقهُ ابنًا فاق عليهِ عزًّا اعني يوحنا الذي اختارهُ ليشرّف الكنيسة الشرقيّة بفضائلهِ السامية وعلومهِ الفريدة (١ . جاء في تقليد الكنيسة اليونانيّة انّهُ اخذ الفلسفة عن قزما راهبٍ صِقِلّي واحد أُسرى العرب اشتراه ابوهُ بمالهِ واعتقهُ وجعلهُ معلّمًا لابنهِ فاخذ عنهُ العلوم الفلسفيّة وبرع فيها ثمّ خلف اباهُ في دواوين الخلفاء فخدمهم خدمةً نصوحًا بصفة مستشار (πρωτοσύμβουλος) وهو في الوقت عينهِ يسوس اهل ملّتهِ ويحذّرهم ممّا شاع من البدع كبدعة المشيئة الواحدة في المسيح وبدعة محاربي الصور . ففي ترجمة حياة القديس التي تُعزى الى يوحنا بطريرك انطاكية في القرن العاشر (٢ انّ كتابات الدمشقي اثارت بغض ملك القسطنطينيّة لاون الايزوريّ (٧١٧–٧٤١) فبغى بتقليد خطّ يوحنا بن منصور وتزوير كتاب عن اسمهِ يدعوهُ بهِ الى فتح دمشق . فلمّا وقف عليهِ الخليفة (عمر بن عبد العزيز على ما يُظَنّ) خُدع بهِ فامر بقطع يد كاتبها المزعوم يوحنا لكنّ العذراء مريم ردّتها لهُ سالمةً لمدافعتهِ عن اكرام صورها . وكانت هذه المعجزة سببًا لاستعفاء يوحنا من خدمة الخلفاء والزهد في الدنيا بالترهّب في دير مار سابا قريبًا من اورشليم حيث توفي نحو ٧٤٩ م ونقيم قبرهُ (٣ . امّا بيتهُ في دمشق فموقعهُ على ما يُروى في التقليد في مكان دير اليسوعيين حاضرًا

١) يدعى القديس يوحنا الدمشقي في بعض الكتب بابن منصور نسبة الى جدّهِ

٢) راجع ايضًا الترجمة العربيّة الاصليّة التي نشرها حضرة الخوري قسطنطين الباشا سنة ١٩١٢

٣) اطلب مقالة حسنة في ترجمة القديس للاب الصعودي جوجي (M. Jugie) في اصداء الشرق Echos d'Orient, *Avril-Juin*, 1924

وقد ابقى لنا القديس يوحنا الدمشقي كنوزاً ادبيّة ودينيّة لا تُثمَّن فانّهُ اجاد في كلّ ما كتب نثراً ونظماً في موادّ فلسفيّة ولاهوتيّة وجدليّة وطقسيّة استحقّ بها ان يُنظم في عداد ملافنة الكنيستين الشرقيّة والغربيّة وقد نُقلت تآليفهُ الى لغات مختلفة من جملتها اللغة العربيّة (١ . ويعتبرهُ اللاهوتيّون الغربيّون كممهّد لطريقة التعليم اللاهوتي المعروفة بالمدرسيّة (Théologie scholastique) التي برع فيها بعد ذلك القديس توما الاكويني . ولهُ الاناشيد والتسابيح الطقسيّة التي تُتلى الى يومنا في الكنيسة اليونانيّة

وقد اثّرت تعاليم القديس يوحنا الدمشقي في بعض معاصريهِ المعدودين كتلامذته منهم قزما الذي ترهّب معهُ في دير القديس سابا ثمّ صار اسقفاً على مدينة ميوما . ومنهم ثاودورس ابو قرّة اللاهوتيّ الكبير اسقف حرّان صاحب التآليف المتعدّدة في المعتقدات النصرانيّة والمدافعة عنها ضد الهراطقة وغير المؤمنين في اليونانيّة والعربيّة والسريانيّة (٢

وقبل يوحنّا الدمشقي بعدّة سنين اشتهر رجل آخر تفتخر بهِ الفيحاء نعني بهِ القديس صفرونيوس بطريرك اورشليم فهذا كان مولدهُ في دمشق ثمّ ترهّب في القدس في دير القديس ثاودوسيوس ثمّ اقيم بطريركاً على اورشليم وفي ايّامهِ دخل العرب المدينة المقدّسة وباشارتهِ عدلَ عمر بن الخطّاب عن كنيسة القيامة الى مكان المسجد الاقصى الذي ابتناهُ عبد الملك بن مروان . توفي القديس صفرونيوس سنة ٦٣٨ ولهُ المؤلفات الجليلة من مواعظ واناشيد دينيّة ولاسيما تفنيدهُ لبدعة المشيئة الواحدة مجاراه في ذلك القديس يوحنّا الدمشقي (٣ والقديس مكسيموس المعترف (المتوفّى سنة ٦٦٢) (٤

وليس افتخار دمشق المسيحيّة بقديس آخر دون اعتزازها بالمشاهير السابق ذكرهم ألا وهو القديس اندراوس رئيس اساقفة جزيرة كريت . ولد في دمشق ودرس ثم ترهّب في القدس واقام مدّةً في القسطنطينيّة ثمّ دُعي الى رعاية كنيسة كريت فساسها

---

١) اطلب كتابنا «المخطوطات العربيّة لكنيسة النصرانيّة» (ص ٢١٧)

٢) اطلبهُ ايضاً (ص ٢٣-٢٤)

٣) الكتاب عينهُ (ص ١٢٤-١٢٥) ٤) الكتاب المذكور (ص ٢٦٦-١٦٧)

بكل حكمة وتوفي سنة ٧٢٠ وقيل ٧٢٣ تآليفهُ ايضاً كتآليف القديس صفرونيوس منها ميامر ومنها تسابيح دينيَّة ومنها جدال لتربيت تعليم القائلين بمشيئة واحدة في المسيح

وكانت كنيسة دمشق راتعةً في بحبوحة السلام في أيام الامويين الاوَّلين يمارسون فرائض دينهم بحرّية يشهد على ذلك ما نالهُ الاخطل الشاعر النصرانيّ الكبير من الحظوة في مجالس خلفائهم يدخل عليهم بغير اذن وفي عنقهِ سلسلةٌ فيها صليب ذهب. وبلغ من الزلفة لدى عبد الملك بن مروان الى ان اطاف بهِ في شوارع دمشق ومولاهُ يصرخ امامهُ: هذا شاعر امير المؤمنين هذا اشعر العرب (الاغاني ٧: ١٣٧) وكان الاخطل اذا أتى الشام نزل ضيفاً مكرَّماً في بيت سرجون بن منصور (١٧٤)

وممَّن قصد الى الشام وامتدح خلفاءها من بني اميَّة من النصارى شاعران سبق لنا ذكر ترجمتها (ص ٣٧٢ و٤٤٩ الخ) نزيد بهما اعشى بني تغلب ونابغة بني شيبان فحظيا لديهم ونالا نصيباً حسناً من جوائزهم . ومثلهما القطامي التغلبيّ أمَّ دمشق وعرف فضلهُ وجودة قريحتهِ عبدُ الملك بن مروان وعبد الواحد بن سليمان (الاغاني ٢٠: ١١٨—١١٩ و١٣١)

واشتهر من غير الشعراء في دولة بني اميَّة بعض الاطبَّاء الذين ترجمهم جمال الدين القفطي وابن ابي اصيبعة وغيرهما قال ابن ابي اصيبعة (١: ١١٦): «كان ابن اثال طبيباً متقدماً من الاطباء المتميّزين في دمشق نصرانيّ المذهب والَّا ملك معاوية ابن ابي سفيان دمشق اصطفاهُ لنفسهِ واحسن اليهِ وكان كثير الاعتقاد لهُ والاعتماد فيهِ والمحادثة معهُ ليلًا ونهاراً وكان ابن اثال خبيراً بالادوية المفردة والمركَّبة» ثمَّ ادَّعى ان معاوية استعان بهِ لتسميم بعض اعدائهِ ولا نعلم ما في هذا الامر من الصحة

وكذلك افاض في ذكر طبيبين آخرين من نصارى دمشق (١١٩—١٢١) اوَّلهما ابو الحكم قال ايضاً انهُ «كان عالماً بانواع العلاج والادوية والهُ اعمال مذكورة ووصفات مشهورة وكان يستطبّهُ معاوية بن ابي سفيان ويعتمد عليهِ . . وعُمّر طويلًا حتى تجاوز المائة سنة». ثمَّ ذكر ابنهُ حكماً الدمشقي قال «انهُ كان يلحق بابيهِ في معرفتهِ المداواة والاعمال الطبيَّة والصفات البدنيَّة وكان مقيماً بدمشق وعُمّر ايضاً عمراً طويلًا»

ومما بقي من آثار النصرانيَّة في عهد الامويين كتابات ومقاطيع مختلفة منها يونانيَّة ومنها آراميَّة وسريانيَّة مكتوبة على رقّ بينها قطع من الاسفار المقدَّسة من العهدين القديم والحديث وشذرات دينيَّة وادبيَّة وقصص رهبانيَّة كانت مكدَّسة في قبَّة على سوار وبسط الجامع الاموي وُجدت في جملتها مزامير عربيَّة مكتوبة بحرف يوناني يُستدلّ بها على لهجة نصارى تلك الاجيال القديمة. ومعظمها اليوم في مكتبة برلين اهداها السلطان عبد الحميد اصحابهُ الالمان (راجع المشرق ١١ [١٩٠٨] : ٩٦١—٩٦٢)

٤ نصارى دمشق والوليد بن عبد الملك

وكأنَّ هذه الحالة من الهناء والطمأنينة قد كادت تبطل في أيام الوليد بن عبد الملك (٧٠٥- ٧١٥) فانَّهُ اغتصب النصارى على كنيستهم الكبرى فحوّلها الى مسجد بمساعدة مائة صانع من بُناة الروم (الطبري ٢ : ١١٩٤ وتاريخ ابن عساكر ١ : ٢٠٢). وهم الذين زيَّنوا حيطانها بالفسيفساء. قال المقدسيّ من كتبة القرن العاشر في كتابهِ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ص ١٥٧):

« وحيطانهُ (اي الجامع الامويّ) الى قامتين بالرخام المجزَّع ثمّ الى السقف بالفسيفساء الملوّنة في المذهَّبة بصور اشجار وامصار وبلدان وكتابات على غاية الحسن والدقَّة ولطافة الصنعة وقلَّ شجرةٌ او بلدٌ مذكور الَّا وقد مُثِّل على تلك الحيطان وطُليت رؤوس الاعمدة بالذهب وقناطر الاروقة كلُّها مرصَّعة بالفسيفساء »

وقد ظهر كثير من آثار تلك الفسيفساء العجيبة في هذه السنين الاخيرة في مصلَّب الجامع وفي قناطر باب البريد وفي الكوى والشبابيك التي تعلو فوق باب الجامع الاكبر على قناطرها واطرافها وكانت تلك الاعمال قد طُمست بحريق الجامع في عهد تيمورلنك وبما طُليَت بهِ من الملاط والكلس فلمَّا نُظفت وغُسّلت سنة ١٩١١ ظهرت بكل بهائها وزهاء الوانها (المشرق ١٤ [١٩١١] : ٦٣٩) فشهدت لبُنانها النصارى بالبراعة في اصطناعها وتنسيقها

بل لا يزال على بعض اطرافها الى يومنا كتابات يونانيَّة تدلُّ على اصل الكنيسة قبل تحويلها الى جامع. منها الكتابة التي فوق مدخل الباب الجنوبيّ التي تعريبها « انَّ ملكوتك ايها المسيح هو ملكوت جميع الدهور وسلطانك في كل جيل فجيل » (المزمور ١٤٤ : ١٣). ومنها الكتابة التي اكتشفها المسيو دوسو (R. Dussaud)

تحتوي آية اخرى يونانيّة من المزامير (٨٨: ٨) : « انّ الله رهيب في مجلس القديسين جدًّا ومهيب عند جميع الذين حوله »

ومن آثار تشدُّد الوليد على النصارى ما ورد في اخبار رئيس اساقفة دمشق (١ المدعو بطرس كان هذا تصدّى للشيعة المانوية وجاهر بايمانه في مجلس الوليد فامر الخليفة بقطع لسانه ثمّ نفاهُ الى جهات اليمن فردّ الله عليه بمقولهِ واخذ ينطق بطلاقة ويصرّح بايمانه فامر الوليد بقتله

وقد جاء في اعمال القديسين لجماعة البولنديين في يومي ١٩ شباط و ١٤ آذار ذكر شهداء آخرين قُتلوا في عهد الوليد احدهم المدعو بطرس من مَيُومة قُتل في الفيحاء لدعوته العرب الى دينهِ والآخرون قُتلوا في حرّان كان زعيمهم استاثيوس البطريق

وقد مرَّ لنا في المشرق في عدد آذار (١٧٨—١٨١) ذكر شملة التغلبي الذي حاول الوليد (على الارجح) ان يردّهُ عن النصرانيّة فأبى وامر الخليفة بجزّ قطعةٍ من لحمهِ شُويت فغُصب على اكلها. ولذلك ايضاً نسبنا الى الوليد (ص ٦١٧) اضطرارهُ للنابغة الشيباني الشاعر النصراني ان يدين بالاسلام

هذا ما امكننا جمعهُ من اخبار النصارى في دمشق على عهد الدولة الاموية

٥ دمشق النصرانية في عهد بني عباس وممالك مصر

كان انتقال كرسي الدولة من دمشق الى بغداد بفوز بني عباس ضربةً أليمة على سوريّة عموماً وعلى الفيحاء خصوصاً فاصبحت هذه المدينة خاملةً لا نكاد نعرف شيئاً من اخبارها الّا ما حصل من المنازعات بسببها فحكمتها اوّلاً حاكم من بني العباس ثمّ صارت في حوزة الطولونيين والاخشيديين والسلجوقيين ثمّ الفاطميين والايوبيين وممالك مصر وتوالت النكبات عليها باختلاف هذه الدول وما اسعرتهُ من الحروب لاقتنائها وقد نال النصارى قسمٌ كبير من تلك البلايا. فخربت كنائسهم او أُحرقت او حُوّلت الى مساجد كما ورد في تاريخ ابن عساكر (المشرق ١٤ [١٩١١]: ٨٠٠—٨٣٠) وفي ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسيّ (ص ٦) وروى ابن بطريق (٢: ٨٣) في تاريخ سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦م) : « انّ المسلمين ثاروا فهدموا كنيسة مار تقريم الكاثوليكيّة وكانت كنيسة عظيمة حسنة أُنفق فيها مائتا الف دينار ونُهب ما كان

١) اطلب اعمال الآباء البولنديين (Migne, P. G., CVIII, 840-841)

فيها من ابنية وحلي وغير ذلك ونُهبت عدّة ديارات وخاصّة دير النساء الذي كان بجانب الكنيسة وشعثوا كنائس كثيرة للملكيّة وهدموا كنيسة النسطوريّة »

ثمّ عاد النصارى فجدّدوا بناءها ولمّا تولى الامر الحاكم بامر الله امرَ بهدمها. قال يحيى بن سعيد الانطاكي (ص ١٩٥): كتب (الحاكم) الى دمشق بهدم كنيسة السيدة القاتوليكي وهي كبيرة حسنة فهُدمت » وفي تاريخ البطريرك مكاريوس ان اناساً من نصارى دمشق خرجوا الى بغداد واستغاثوا بالخليفة المقتدر فارسل الى نائبه بالشام واعاد بناء الكنائس المهدومة. وفي ايّامه تشتّت شمل نصارى الشام. قال ابن سعيد في تاريخ سنة ٤٠٤ (١٠١٤ م) يذكر امارة بني الجرّاح في دمشق : « وعظمت مصادراتهم للناس مرّة بعد اخرى وتعسّفهم ايّاهم فهرب من النصارى المقيمين بالشام خلقٌ كثير وتوجّه جميعهم الى بلاد الروم وقصد اكثرهم اللاذقيّة وانطاكية وقطنوها »

وتغرّق ايضاً اساقفة دمشق الملكيّون وقد روى القديس الكرديناال بطرس دميان خبر احدهم المدعو سرجيوس قال انهُ خرج من دمشق بعد فتحها في عهد الدولة الفاطميّة سنة ٩٧٤ م وجاء شريداً غريباً الى رومية ونال من جود البابا بندكتوس السابع ان يُنشئ ديراً في رومية عند كنيستي القديسين بونيفاسيوس وألكسيوس وبقي هناك الى موته (المشرق ١٢ [١٩٠٩] : ٩١٥)

وسعى الصليبيون غير مرّة في فتح دمشق لكنّهم لم يقووا عليها وانّما ضربوا عليها الجزية مدّة. ودخلها بعد زمن قليل نور الدين ابن زنكي وخلفهُ عليها صلاح الدين الأيوبي وسلالتهُ من بعده. وفي ايّام السلطان الاشرف موسى سنة ١٢٣٣ التمس الحبر الاعظم غريغوريوس التاسع بان يسكن الرهبان الفرنسيّون في دمشق لخدمة النصارى

وفتح التتر دمشق سنة ١٢٦٠ بالامان فاكرموا النصارى ولمّا خرجوا ثار عليهم المسلمون (٧٤٠ هـ) ونهبوا بيوتهم وهدموا كنيستهم. واصاب نصارى دمشق محن كثيرة في ايّام ممالك مصر. ففي ايّام السلطان قلاوون قُتل في سبيل الايمان مرسلان من رهبان القديس فرنسيس. وفي زمن الملك الناصر سنة ٧٠٠ قُضي على نصارى دمشق بان يعتمّوا بعمائم سوداء ويخضعوا لاوامر مُذلّة. وفي ايّامه ايضاً اتّهموهم بحرق الجامع الاموي فقتلوا البعض وعذّبوا البعض وغرّموهم اموالاً وافرة. واستشهد راهبان آخران من الفرنسيين. هذا فضلاً عمّا ذاقوهُ من المرائر مع مواطنيهم

المسلمين عند دخول تيمورلنك والنزول عاصمة الشام وامره بنهبها وحريقها وإعمال السيف في اهلها وجلاء صَنعتها عنها

وممَّن يذكرهم التاريخ من افاضل نصارى دمشق في أيام الدول المذكورة بعض الاطباء ذوي المهارة في العلاج . نبغ منهم في عهد الدولة العباسيَّة عيسى بن حكم الدمشقيّ . قال ابن ابي اصيبعة (١ : ١٢٠) : «هو المشهور بمسيح صاحب الكنَّاش الكبير الذي يُعرف به وينسب اليه» وذكر معالجتهُ لغضيض امّ ولـد الرشيد وقال عنهُ « انهُ كان يسلك طريق الرهبان ولا يحمد شيئاً مما يزيد في الباه ويذكر ان ذلك يُتلف الابدان ويذهب الانفس»

وممَّن ذكرهُ ايضاً ابن ابي اصيبعة من الاطباء النصارى ابو الفرج جرجس اليبرودي من نصارى اليعاقبة (٢ : ١٤١) اصاب في دمشق سمعة واسعة وثروةً طائلة بمعالجاتهِ في القرن الخامس للهجرة . وزاد عليهِ شهرةً في دمشق موفَّق الـدين بن المطران(٢ : ١٧٥) لولا انَّهُ عدل الى الاسلام . ومن مشاهيرهم ابو النجم بن ابي غالب النصرانيّ اخذ الطبّ عن اطباء دمشق وفيهـا توفي سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) بعد ان خدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظي عندهُ . كما خدمهُ طبيب آخر اسمهُ ابو الفرج النصراني كان متميِّزًا في زمانهِ

وفي دمشق ايضاً اشتهر موفَّق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني الملكيّ من أعرف الناس بكتب جالينوس كان مولدهُ في القدس ولازم بها رجلًا فاضلًا وفيلسوفاً راهباً خبيراً بالعلم الطبيعي متقناً للهندسة وعلم الحساب والفلـك ثم قصد دمشق وخدم الملك المعظَّم عيسى بن ابي بكر بن أيوب الذي كان يعتمد عليهِ في كثير من الآراء الطبيَّة وغيرها . قال ابن ابي اصيبعة (٢ : ٢١٥) وقصد الملك المعظَّم ان يولّيـهُ بعض تدبير دولتهِ . . . وكان يعتقدهُ ويكرمهُ غاية الاكرام ويستصحبهُ في اسفارهِ معهُ في محفَّة . توفي بدمشق في عيد فصح النصارى سنة ٦٢٥ (١٢٢٨م) وبها توفي ابنهُ سديد الدين ابو منصور وكان خدم الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظَّم عيسى وكان مكيناً عندهُ (٢ : ٢١٦) . وفي دمشق ايضاً توفي ابن القفّ الطبيب الشهير (٦٨٥هـ)

٦ دمشق النصرانيّة في عهد بني عثمان الى يومنا

دخلت سوريَّة في حكم بني عثمان بعد انتصار السلطان سليم الاوَّل في موقعـة

مرج دابق على قانصوه سلطان مصر سنة ١٥١٥ وقتل ابنه الملك الصالح طومان باي سنة ١٥١٦ فحظي النصارى ببعض الراحة . وكان قبل ذلك بطريرك الروم الانطاكي يوخوميوس في القسم الثاني من القرن الرابع عشر رأى ان ينقل كرسي البطريركيَّة الى دمشق لما كان اصاب انطاكية من الطوارئ والنكبات . وكان مع وجود البطريرك في النيحاء مطارنة على القلاية (اطلب المشرق ١٢[١٩٠٩]: ٩١٦–٩١٧) وكان في دمشق ما عدا الملكيين قومٌ من الوارنة ورد ذكرهم في اخبار السيَّاح ورسائل المرسلين

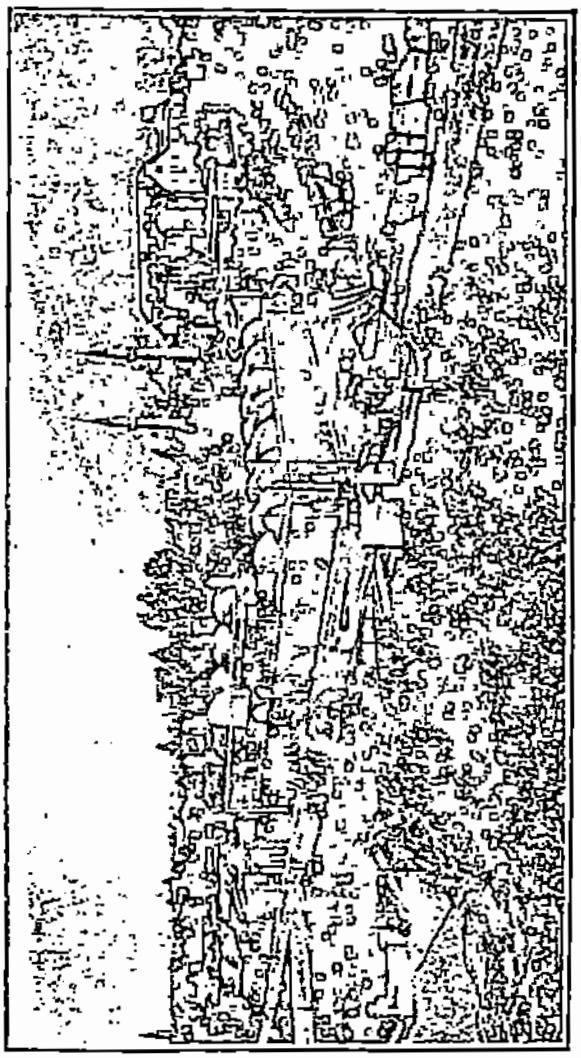

مدخل دمشق

لهم فيها كنيسة صغيرة يخدمها كاهن عالميّ ولا اسقف عليهم . وقد نشر جناب الكاتب المدقق الشيخ سليم الدحداح سلسلة اساقفتهم في المشرق(٧ [١٩٠٤] : ٧٤٨—٧٥٥) اوّلهم المطران انطون سنة ١٥٢٧ وآخرهم سيادة المطران الحالي بشارة الشمالي ولم يسكنوا دمشق

وفي العهد العثماني دخل المرسلون الكبوشيُّون واليسوعيُّون دمشق ليخدموا فيها النصارى مع الآباء الفرنسيسيين فاحرزت النصرانيَّة وخصوصاً الكثلكة بهم رونقاً جديداً . وكان دخول اليسوعيين الفيحاء برفقة البطريرك افتيميوس الحموي آتياً من حلب سنة ١٦٤٣ الى عاصمة الشام ليتبوأ السدَّة البطريركيَّة وكان عرَّفهم حقَّ المعرفة في الشهباء ففتح الاب جيروم كوريو باغرانهِ مدرسةً علَّم فيها الآداب الكنسيَّة والطقوس البيعيَّة وشرح اعمال آباء اليونان فتقاطر اليهِ الطلبة حتى الاكليرس والكهنة . فاضحوا خميرة الروم الملكيين المتحدين مع رومية . وكان اخوتهُ المرسلون يجارونهُ في الاعمال الرسوليَّة كالتبشير وعيادة المرضى وزيارة المحبوسين والاسرى والعبيد فمات منهم خمسة في خدمة المطعونين . وكذلك تعزَّزت الكثلكة بالمرسلين الكبوشيين حتى بلغ في دمشق عدد المنتمين الى الكنيسة بضعة آلاف . على انَّ نجاحهم هذا كان كحصاد لما زرعوهُ بالعناء والدموع فانَّ رسائلهم المخطوطة تنبئنا بما قاسوهُ من المشقَّات من قبل الاتراك واعداء الكثلكة فتارةً كانوا ينهبون اديارهم وتارة يطالبونهم بالمرتبات وحيناً يلقونهم في السجون ويغلّونهم بالحديد ويضربونهم بالعصيّ

وقد زادت هذه المصادرات بعد ان اختار لهم الكاثوليك بطريركاً مستقلاً عن بطريرك الفنار خاضعاً لإمام الاحبار نعني بهِ كيرلُّس طاناس فناصبهُ ساوتر الصاقزلي وهيَّج عليهِ وعلى الحزب الكاثوليكي عمَّال الدولة فذاقوا من جرَّاء ذلك ضروب الاوجاع والبلايا ومنهم من ماتوا شهداء ايمانهم . ولم تنتهِ تلك الاضطهادات والمظالم الَّا في أيام الطيب الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم لما حرَّر طائفتهُ من نير البطريركيَّة المسكونيَّة

دخل القرن التاسع عشر وامور النصارى في الشام باسوإ حال لنا على ما تكبَّدوهُ من المحن واصناف البلايا شاهدٌ عياني وهو ميخائيل الدمشقي الذي كتب تاريخ حوادث الشام ولبنان من السنة ١٧٨٢ الى ١٨٤١ وهو التاريخ البديع الذي

نشرهُ حضرة الاب لويس معلوف عن نسخة لندن وفيهِ من التفاصيل ما لا يدع ريباً في صحَّة روايتهِ عن فظائع عمَّال الدولة وبطاركة الروم في حقّ الكاثوليك عموماً وفي المرسلين فيغنينا عن المراجعة مع اضافة ما حدث بعد ذلك في السنة ١٨٦٠ من المذابح والنهب والسلب والحريق في القيحا. وفي لبنان فتضرب الصفح عن ذكرها لشهرتها

ومع هذه المصائب الحالَّة بالنصارى نبغ بينهم رجال فضل واكثرهم من الكاثوليك كميخائيل البحري وبنيهِ عبُّود وجرمانوس وحنا الذين خدموا الدولة بصفة كتَّاب ومدبّري امور وشيَّدوا كنيسةً في دمشق لبني ملَّتهم (المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٩–١٢) وكميخائيل الصبَّاغ الذي تخرَّج على الآداب في دمشق قبل ان يهاجر الى باريس ويجاري فيها المستشرقين بمصنفاتهِ من جملتها تاريخ لبلاد الشام اخذتهُ يد الضياع

ولاح بعد ذلك لنصارى دمشق بارقُ أمل في تحسين احوالهم بتوسّط الدول الاوربيَّة وخصوصاً فرنسة فنالوا قسماً من الحرّيَّة والامان تمكَّنوا بهما من اصلاح امورهم الماديَّة والادبيَّة ساعدهم على ذلك اكليروسهم الفاضل والرهبان المرسلون احسن مساعدة ففُتحت المدارس الزاهرة وشُيّدت الكنائس البديعة وأُنشئت المستشفيات والملاجئ وتأسَّست الجمعيَّات الخيريَّة فبلغت النصرانيَّة في هذه الاعوام الاخيرة رقياً لم تعرفهُ في القرون السابقة. ولكلّ طائفة أُسر واعمال شريفة تنطق بفضلها. واشتهر كثيرون بالصنائع كتطعيم الخشب والحفر على النحاس يُشار اليهم بالبنان كآل النعسان وآل البيطار

وكان للاكليروس السهمُ الأوفى في تنظيم امور ملليهم وتدبيرها ونجاحها نكتفي بالاشارة الى البعض منهم كالسيد البطريرك غريغوريوس يوسف والسيد بولس مسدّيه بين الروم الكاثوليك وكالسيد اقليميس داود من السريان الكاثوليك والخوري موسى كرم من الموارنة وعضدهم في ترقية ملليهم رجال افاضل من بيت بولاد وصبَّاغ وسبو في وكحيل وغرَّة وعنحوري وغيرهم ممَّن تنطق الالسنة بمآثرهم ويقرُّ الجميع بفضلهم هذا ما عدا قوماً من الاحياء المرزوقين الذين يسيرون على آثار اسلافهم ويشرّفون دينهم بتقواهم ومبرّاتهم وهم لفرنسة في انتدابها على الشام خير مسعف لتحقيق حسن نيَّاتها وتأييد طيّب مساعيها في خدمة وطنهم جازاهم الله خيراً